

الباب الخامس

الهجرة الميمونة إلى المدينة المنورة

الإذن الإلهي بالقتال :

قال ابن إسحق :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بيعة العقبة لم يؤذن له في الحرب ، ولم تحلل له الدماء ، وإنما يؤمر بالدعاء إلى الله ، والصبر على الأذى ، والصفح عن الجاهل ، وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين ، حتى فتنهم عن دينهم ، ونفوسهم عن بلادهم ، فهم من بين مفتون في دينه ، ومن بين معذب في أيديهم ، وبين هارب في البلاد فراراً منهم ، منهم من بأرض الحبشة ، ومنهم من بالمدينة ، وفي كل وجه .

فلما عنت^(١) قريش على الله عز وجل ، وردوا عليه ما أرادهم به من الكرامة ، وكذبوا نبيته صلى الله عليه وسلم ، وعذبوا ونفوا من عبّد الله ووحده ، وصدق نبيه واعتصم بدينه ، أذن الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم في القتال ، والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم ، فكانت أول آية أنزلت في إذنه له في الحرب ، وإحلاله له الدماء والقتال لمن بغى عليهم ، فيما بلغني عن عروة بن الزبير وغيره من العلماء قول الله تبارك وتعالى في سورة الحج :

(أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بَأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّا لَهُمْ

(١) عنت : تجبرت وازدادت كفراً .

فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ
 وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) ، أى إلى أحللت لهم القتال لأنهم ظلموا ، ولم يكن
 لهم ذنب فيما بينهم وبين الناس إلا أن يعبدوا الله ، ويعنى النبي صلى الله
 عليه وسلم وأصحابه رضى الله عنهم أجمعين ؛ ثم أنزل الله تبارك وتعالى عليه
 فى سورة البقرة : (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ) ، أى حتى
 لا يفتن مؤمن عن دينه ، ويعبد الله وحده فلا يعبد معه غيره .

انتشار الإسلام بالمدينة :

ولما عاد أهل بيعة العقبة من الأنصار إلى المدينة ، أظهروا الإسلام بها ، ثم
 أخذ المسلمون يهاجرون سرّاً من مكة إلى المدينة، ولم يبق بمكة مع الرسول صلى الله
 عليه وسلم إلا اثنان من السابقين الأولين هما سيدنا أبو بكر وسيدنا على رضى
 الله عنهما .

هجرة المسلمين إلى المدينة المنورة :

فلما أذن الله تعالى له صلى الله عليه وسلم فى الحرب ، وبايعه هذا الحى
 من الأنصار على الإسلام والنصرة له ولمن اتبعه وأوى إليهم من المسلمين ، أمر
 رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه من المهاجرين من قومه ومن معه بمكة من
 المسلمين بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها والحقوق بإخوانهم من الأنصار
 وقال : « إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها » .

قال ابن إسحق :

فخرجوا أرسالا (جماعة بعدها جماعة) ، وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم
 بمكة ينتظر أن يأذن له ربه فى الخروج من مكة والهجرة إلى المدينة .

أبوسلمة أول المهاجرين إلى المدينة :

قال ابن إسحق :

فكان أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من

المهاجرين من قريش من بنى مخزوم أبو سلمة بن عبد الأسد واسمه عبد الله (وهو ابن عمه رسول الله - برة بنت عبد المطلب - وأخوه من الرضاة) هاجر إلى المدينة قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة . وكان قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة من أرض الحبشة . فلما آذته قريش . وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار ، خرج إلى المدينة مهاجراً : وقد حضر بدرأ ، وجرح في غزوة أحد والتأم جرحه ، ثم عاد ونفر عليه ^(١) ومات به . وقد كبر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسع تكبيرات فقالوا : يا رسول الله أسهوت أم نسيت ؟ فأجاب : لم أسه ولم أنس ، ولو كبرت على أبي سلمة ألفاً كان أهلاً لذلك .

هجرة السيدة أم سلمة رضي الله عنها :

واقراً في عجب وإعجاب ما كان في هجرة زوجته السيدة أم سلمة ، التي أسعدها الله بمزواجها من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد استشهاد زوجها أبي سلمة .

فقد قالت فيما رواه بسنده ابن إسحق :

لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رحل ^(٢) لي بعيره ثم حملني عليه . وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجرى . ثم خرج بي يقود بعيره . فلما رآته رجال بني المغيرة قاموا إليه فقالوا: هذه نفسك غلبتنا عليها . رأيت صاحبك هذه ؟ علام نتركك تسير بها في البلاد ؟ قالت : فنزعوا خطام البعير من يده . فأخذوني منه . قالت : وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبي سلمة . فقالوا : لا والله ، لا نترك ابننا عندها إذا نزعتموها من صاحبها (أى زوجها) . قالت : فتجادبوا ببنى سلمة « بينهم حتى خلعوا يده . وانطلق به بنو عبد الأسد . وجسني بنو المغيرة عندهم . وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة . قالت : ففرق بيني وبين زوجي وبين ابني ، قالت : فكنت أخرج كل غداة فأجلس في الأبطح . فما أزال أبكي

(١) نفر عليه : عارده ألم الجرح .

(٢) جهز البعير للسفر .

حتى أمسى سنة أو قريباً منها ، حتى مَرَّ بِي رجل من بني عمي - أحد بني المغيرة ، فرأى ما بي ، فرحمني . فقال لبني المغيرة : ألا تخرجون هذه المسكينة . فرقم بينها وبين زوجها وبين ولدها .

قالت : فقالوا لي : الحق بزوجك إن شئت ، قالت : ورد بنو عبد الأسد إلى عند ذلك ابني ، قالت : فارتحلت بعيري ، ثم أخذت ابني فوضعت في حجرى . ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة ، قالت : وما معي أحد من نخلق الله ، قالت : فقلت أتبتاع^(١) بمن لقيت حتى أقدم على زوجي ، حتى إذا كنت بالتنعيم (من ضواحي مكة) لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة ، أخا بني عبد الدار ، فقال لي : إلى أين يا بنت أبي أمية ؟ قالت : فقلت : أريد زوجي بالمدينة ، قال : أو مامعك أحد ؟ قالت : فقلت : لا والله ، إلا الله وبني هذا .

أيها القارئ الكريم : ألا يثير ذلك إعجابك من يقينها وعزمها وتضحيتها في سبيل الله ، وكيف لا يثير إعجابك أن ترى سيدة تتركب ناقتها مع طفلها الصغير نحواً من أسبوعين في صحراء شاسعة حتى تبلغ المدينة ، وليس معها من يعينها على مشقة الرحلة الطويلة على ظهر الإبل ، مع ما تحتاج إليه من إناخة الدابة ، وإنزال الرجل والعلف ثم شدّ الحمل عليها ، فضلاً عن رعاية طفلها الكسير !!

لاشك أنه موقف يثير عطفك وإشفاقك ، ولكن الله أرحم بها مني ومنك . فانظر كيف دبر الله لها أمرها على غير ترتيب منها ، فسخر لها رجلاً ذا مروءة عربية فطرية فأعانها ويسر أمرها حتى أبلغها المدينة ، واستمع إليها وهي تحكي ما كان منه :

قالت رضى الله عنها : قال عثمان : والله مالك من مترك^(٢) . فأخذ بخظام البعير ، فانطلق معي يهوى بي . فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه . كان إذا بلغ المنزل أناخ بي ، ثم استأخر عنى . حتى إذا نزلت استأخر

(١) أستين .

(٢) لا يجوز أن أتركك وحدك .

ببعيرى فحط عنه ، ثم قيده فى الشجرة ، ثم تنحى عنى إلى الشجرة ، فاضطجع تحتها ، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيرى فقدمه فرحله ، ثم استأخر عنى ، وقال : اركبى ، فإذا ركبت واستويت على بعيرى ، أتى فأخذ بخطامه فقاده حتى ينزل بى ، فلم يزل يصنع ذلك بى حتى أقدمنى المدينة ، فلما نظر إلى قرية عمرو بن عوف بقباء ، قال : زوجك فى هذه القرية — وكان أبو سلمة بها نازلاً — فادخلها على بركة الله ، ثم انصرف راجعاً إلى مكة .

قال : فكانت تقول : والله ما أعلم أهل بيت فى الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبى سلمة ، وما رأيت صاحباً قط كان أكرم من عثمان بن طلحة .

أقول : وكان عثمان يوم هجرته بأمر سلمة على الكفر ، وإنما أسلم فى هدنة الحديبية وهاجر قبل الفتح مع خالد بن الوليد ، ودفع رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه وإلى عمه شيبه بن عثمان مفاتيح الكعبة فى عام الفتح . وقد قتل عثمان بن طلحة رضى الله عنه شهيداً بأجنادين فى أول خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

قال ابن إسحق :

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له فيها بالهجرة ، ولم يتخلف معه بمكة أحد من المهاجرين إلا من حبس أو فتن ، وإلا على بن أبى طالب وأبو بكر الصديق رضى الله عنهما ، وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الهجرة ، فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لاتعجل ، لعل الله يجعل لك صاحباً ، فيطمع أبو بكر أن يكونه .

مؤامرة يكشفها الله تعالى :

قال ابن إسحق :

ولما رأت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد صارت له شيعه وأصحاب من غيرهم ، بغير بلدهم ، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم ، عرفوا أنهم قد نزلوا داراً وأصابوا منهم منعة ، فحذروا خروج رسول الله

صلى الله عليه وسلم إليهم ، فاجتمعوا في دار الندوة - وهي دار كانت لقصى ابن كلاب ، كانت قريش لا تقضى أمراً إلا فيها ، يتشاورون فيما يصنعون في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خافوه .

أقول : وأظلمه الله على ما تشاوروا فيه بقوله تعالى في سورة الأنفال : (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) ، فقد اختلفت آراؤهم بين حبسه في بيت يغلقونه عليه ، فخافوا أن يقتلهم أهله بدافع العصبية ، ويخلصوه من أيديهم . وبين أن يخرجوه من مكة ، فخافوا أن يجتمع الناس عليه لخلاوة منطقته فيقاتلهم بهم ، وبين أن يختاروا من كل بطن من بطون قبائلهم شاباً جلدأً ليقتلوه قتلاً جماعياً فيتفرق دمه في القبائل ، فلا يقوى بنو هاشم على حربهم ، فإذا طلبوا اللدية قدموها لهم ، وهذا الرأي الأخير هو الذي استحسناه بعد التشاور في دار الندوة .

الإمام عليّ يفتدى الرسول بنفسه :

يقول ابن إسحق :

فأتى جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه : ثم يقول ابن إسحق : فلما كانت عتمة من الليل ، اجتمعوا على بابه يرصدونه حتى ينام فيثبوا عليه ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانهم ، قال لعليّ بن أبي طالب : نم على فراشي وتسج^(١) ببردى هذا الحضرميّ الأخضر ، فم فيه . فإنه لن يخاض إليك شيء تكرهه منهم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينام في برده ذلك إذا نام .

خروج الرسول وهم لا يشعرون :

وخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأخذ حفنة من تراب في يده . وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه فلا يرونه ، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم

(١) سج ببردى : اجعل ثوب غطاء لك .

وهو يتلو هؤلاء الآيات من يس :

(يس) * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ *
تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ * لَقَدْ حَقَّ
الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى
الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا
فَأَعْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ) ، حتى فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من
هؤلاء الآيات ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه تراباً ، ثم انصرف إلى
حيث أراد أن يذهب .

قال ابن إسحق : فأتاهم آتٍ ممن لم يكن معهم فقال : ما تنتظرون ههنا ؟
قالوا : محمداً ، قال : خيبكم الله ! قد والله خرج عليكم محمد ، ثم ما ترك منكم
رجلاً إلا وقد وضع على رأسه تراباً وانطلق لحاجته ، أفما ترون ما بكم ؟ قال ابن
إسحق : فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب ، ثم جعلوا يتطلعون
فيرون علياً على الفراش متسجياً ببرد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقولون : والله
إن هذا لمحمد نائماً . عليه برده ، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا ، فقام على
رضي الله عنه عن الفراش فقالوا : والله لقد كان صدقنا الذي حدثنا .

قال ابن إسحق :

حدثني من لا أتهم ، عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين رضي الله
عنها ، قالت : كان لا يخطئ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتي بيت أبي بكر
أحد طرفي النهار إما بكرة وإما عشية ، حتى إذا كان اليوم الذي أذن فيه لرسول
الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة ، والخروج من مكة من بين ظهري قومه ، أتانا
رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجرة ، في ساعة كان لا يأتي فيها .

الإذن بهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم :

قالت : فلما رآه أبو بكر قال : ما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الساعة إلاّ لأمر حدث . قالت : فلما دخل . تأخر له أبو بكر عن سريره ، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس عند أبي بكر إلا أنا وأختي أسماء بنت أبي بكر . فقال رسوله الله صلى الله عليه وسلم : أخرج عنى من عندك ، فقال : يا رسول الله إنما هما ابتائى . وما ذاك ؟ فذاك أبى وأمى ، فقال : إن الله قد أذن لى فى الخروج والهجرة . قالت : فقال أبو بكر : الصحبة يا رسول الله . قال : الصحبة . قالت : فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكى من العرح حتى رأيت أبا بكر يبكى يومئذ ، ثم قال : يا نبيّ الله : إن هاتين راحلتان قد كنت أعددتهم لهذا . فاستأجرا عبد الله بن أريقط - وكان مشركاً - يدُأهُما على الطريق . فدفعنا إليه راحلتيهما . فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما .

قال ابن إسحق :

ولم يعلم - فيما بلغنى - بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد حين خرج إلا على بن أبي طالب . وأبو بكر الصديق . وآل أبي بكر . أما على فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبره بخروجه . وأمره أن يتخلّف بعده بمكة حتى يؤدى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع التى كانت عنده للناس . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بمكة أحد عنده شىء يخشى عليه إلاّ وضعه عنده . لِمَا يعلم من صدقه وأمانته صلى الله عليه وسلم . أقول : فانظر إلى غرابة موقفهم منه . فإنهم كانوا واثقين من صدقه وأمانته حتى ائتمنوه على نفائسهم . حتى إذا دعاهم إلى الله كذبوه . مع أنهم لم يجربوا عليه كذباً من قبل . بل وثقوا بصدقه كل الوثوق ، وصدق الله سبحانه إذ يقول فى سورة الحج :

(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) .

الاختباء في الغار :

قال ابن إسحاق :

فلما أجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخروج ، أتى أبا بكر بن أبي قحافة ، فخرجوا من خوخة^(١) لأبي بكر في ظهر بيته ، ثم عمدا إلى غار بشور^(٢) فدخلاه ، وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره ، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر ، وأمر عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاره ثم يريجهما^(٣) عليهما . يأتيهما إذا أمسى في الغار ، وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما .

وفاء أبي بكر :

قال ابن هشام :

وحدثني بعض أهل العلم أن الحسن بن أبي الحسن البصرى قال :

انتحى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر إلى الغار ليلا ، فدخل أبو بكر رضى الله عنه قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلمس الغار ، لينظر أقيه سبع أوحية يقر رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه .

أقول : رأيت كيف كان الصديق رضى الله عنه يحب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يفتديه بنفسه ، وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما هو حب لله ، وما دام الصديق رضى الله عنه قد بلغ الذروة في حب الرسول الأكرم ، فقد بلغ الذروة في حب ربه الأعظم ، فكان المؤمن الأول في هذه الأمة بين المؤمنين وقد بلغ عددهم الملايين ، وأثبت الله له الصحبة في كتابه الكريم في قوله تعالى : (إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) ، فمن أنكر صحبة

(١) باب صغير .

(٢) جبل بأسفل مكة .

(٣) يرجع بالغنم بعد أن ترعى إلى الغار لتضيق آثار أقدم المتصلين بالرسول وصاحبه .

أبي بكر فقد كفر ، لأنه يكذب كلام الله .

وحق لأمر المؤمنين عمر رضى الله عنه أن يغبط الصديق على تلك الصحبة في الغار ، فقد كان يقول منوهاً بفضل الصديق رضى الله عنه : كنت أحب أن يكون لى يومان من أيام أبي بكر بحياتي كلها ، يوم أن صحب الرسول في الغار ، ويوم أن خالفنا في حرب أهل الردة^(١) .

كما كان يقول : رحم الله أبا بكر ، إنه كان سيدنا وأعتق سيدنا (يشير إلى بلال ويلقبه بالسيادة ، فإن بلالا رضى الله عنه عُدَّ ب في الله ، فاشتراه الصديق من أمية بن خلف وأعتقه ، فما أعظم ديننا الذى ساد به العبيد ، ولا فضل فيه لعربي على عجمي إلا بالتقوى) . وما أعجب أمر سيدنا أبي بكر ، فقد كان ثانياً اثنين في الإيمان ، وثانياً اثنين في الهجرة ، وثانياً اثنين في إمارة الحج (أول أمير للحج هو سيدنا عتاب بن أسيد وولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة بعد الفتح ، كما وولاه إمارة الحج) ، وثانياً اثنين في الخلافة ، وثانياً اثنين في الروضة الشريفة حيث مثوى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال ابن إسحق :

فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار ثلاثاً ومعه أبو بكر ، وجعلت قريش فيه حين فقدوه مائة ناقة لمن يرده عليهم ، وكان عبد الله بن أبي بكر يكون في قريش نهاره معهم ، يسمع ما يأمرون به ، وما يقولون في شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر ، ثم يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخبر .

وكان عامر بن فهيرة ، مولى أبي بكر الصديق رضى الله عنه ، يرعى في رعيان أهل مكة ، فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبي بكر ، فاحتلبا وذبحا ، فإذا عبد الله بن أبي بكر غدا من عندهما إلى مكة ، اتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم حتى يعنى عليه ، حتى إذا مضت الثلاث ، وسكن عنهما الناس أتاهما صاحبهما الذى استأجراه

(١) وهم الذين امتنعوا عن أداء الزكاة ، فحاربهم عليها الصديق رضى الله عنه ، وكان الصحابة يتخوفون من حرهم وهم كثرة ، ولكنه رضى الله عنه حاربهم ليأخذ منهم حق الله ، وقال قوله المشهورة : « والله لو متوفى عقال بغير كانوا يؤدونه للنبي صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه ، أينقص الدين وأناحي؟ » . وتغلب رضى الله عنه على أهل الردة ، وحفظ الله الإسلام على يديه فجزاه الله عن كل خير .

ببغيريهما وبغير له ، وأنتهما أسماء بنت أبي بكر رضى الله عنهما بسفرتهما ، ونسيت أن تجعل لها عصاماً (حبلًا تربط به) فلما ارتحلتا ذهبت لتعلق السفرة ، فإذا ليس لها عصام ، فتحل نطاقها فتجعله عصاماً ثم علقتها به ، فكان يقال لأسماء بنت أبي بكر : ذات النطاق لذلك ؛ قال ابن هشام وسمعت غير واحد من أهل العلم يقول : ذات النطاقين ، وتفسيره أنها لما أرادت أن تعلق السفرة شقت نطاقها اثنتين فعلقت السفرة بواحد وانتظقت بالآخر .

فلما قرب أبو بكر رضى الله عنه الراجلتين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم له أفضلهما ثم قال : اركب فذاك أبي وأمي .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إني لا أركب بغيراً ليس لى ، قال : فهمى لك يا رسول الله بأبى أنت وأمي ، قال : لا ولكن ما الثمن الذى ابتعتها به ؟ قال : كذا وكذا ، قال : قد أخذتها به ، قال : هي لك يا رسول الله ، فركبا وانطلقا ، وأردف أبو بكر الصديق رضى الله عنه عامر بن فهيرة مولاه خلفه ليخدمهما في الطريق .

أقول : رأيت كيف علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما أكثر ما علمنا ، أن نجاهد فى الله بأموالنا ، كما نجاهد فيه بأنفسنا ، فقد أبى أن يقبل الناقة هدية من صاحبه ، مع وثوقه فى صدقه وإخلاصه فى تقديمها هدية ، ولكنه أبى إلا أن تكون بالثمن ليتحمل النفقة فى سبيل الله عز وجل !! . وكيف لا يفعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الأسوة الحسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وكيف لا تتأسى به ، ونجاهد فى سبيل الله بأموالنا وأنفسنا وقد أبلغنا صلى الله عليه وسلم قوله تعالى ناصحاً لنا فى سورة الصف :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ * تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلِكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *

وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ). وما أروع آيات الله البيّنات لمن تدبرها وعقلها .

قال ابن إسحق :

حدثت عن أساء بنت أبي بكر أنها قالت :

لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضى الله عنه، أتانا نفر من قريش ، فيهم أبو جهل بن هشام ، فوقفوا على باب أبي بكر . فخرجت إليهم ، فقالوا : أين أبوك يا بنت أبي بكر ؟ قالت : قلت : لا أدري والله أين أبي ؟ قالت : فرفع أبو جهل يده ، وكان فاحشاً خبيثاً ، فلطم خدى لطمة طرح منها قرطى .

أقول : رأيت إلى القسوة التي طمست على قلبه بكفره ، فحملته على أن يضرب فتاة صغيرة في سن الطفولة ، وهو شيخ كبير لا يرى في ذلك عاراً ، مع أن بعض الحيوان يأبى لنفسه أن يعتدى على امرأة ، وأعلم من ذلك الأسد والجمل ، لأن كلا منهما يستضعفها بإلهامه الفطرى ، ويرأها أضعف من أن يعتدى عليها . فما أتعه من إنسان فقد المروءة التي تحلّى بها بعض الحيوان .

قالت أساء : ثم انصرفوا ، فمكثنا ثلاث ليال ، وما ندرى أين وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى أقبل رجل من الجن من أسفل مكة يتغنى بأبيات من الشعر غناء العرب ، وإن الناس ليتبعونه ، يسمعون صوته وما يرونه حتى خرج من أهل مكة وهو يقول :

جزى الله رب الناس خير جزائه	رفيقين حلا خيمتى أم معبد
هما نزلا بالبر ثم تروحا	فأفلح من أمسى رفيق محمد
ليسهن بنى كعب مكان فتاتهم	ومقعدها للمؤمنين بمرصد

ويروى أن حسان بن ثابت لما بلغه شعر الجنى وما هتف به في مكة قال أبياتاً مطلعها :

لقد خاب قوم غاب عنهم نبيهم

وقد سرّ من يسرى إليهم ويغتدى

قالت : فلما سمعنا قوله عرفنا حيث وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن وجهه إلى المدينة وكانوا أربعة : رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر الصديق رضى الله عنه وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر ، وعبد الله بن أريقط دليلهما .

معجزة نبوية :

واسم أم معبد المشار إليها في الآيات المتقدمة ، عاتكة بنت خالد ، وهى امرأة من بنى كعب من خزاعة ، وقد مر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه ، وكانت سيدة برزة^(١) جلدة تسقى وتطعم ، فسألوها لحمًا وتمراً يشترونه منها ، وكانوا جياعاً ، فلم يجدوا عندها شيئاً ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى شاة ، فقال : ما هذه الشاة يا أم معبد ؟ قالت : شاة خلفها الجهد عن الغنم ، فقال : هل بها من لبن ؟ قالت هى أجهد من ذلك ، قال : أتأذنين لى أن أحلبها ؟

قالت : بأبى أنت وأمى إن رأيت بها حلباً فاحلبها ، فدعا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فصمغ بيده ضرعها ، فسمى الله تعالى ، ودعا لها فى شأنها ، فتفاجت^(٢) عليه ودرت واجترت ، ودعا بإناء فحلب فيه ثججاً^(٣) حتى علاه لبنها ، ثم سقاها حتى رويت وسقى أصحابه حتى رووا ، وشرب آخرهم ، ثم صب فيه ثانياً بعد بدء حتى ملاً الإناء ، ثم غادره عندها ؛ ثم بايعها على الإسلام ، ثم ارتحلوا عنها ، فما لبثت حتى جاء زوجها أبو معبد يسوق أعترأ عجافاً ، فلما رأى أبو معبد اللبن عجب وقال : من أين لك هذا يا أم معبد ؟ والشاة عازب حبال^(٤) ، ولا حلب فى البيت ؟

قالت : لا والله إلا أنه مرّ بنا رجل مبارك ، من حاله كذا وكذا ، ووصفته له فى كلام طويل كله حق ، قال أبو معبد : هذا والله صاحب قریش الذى ذكر

(١) المرأة البرزة هى المقيفة التى تبرز للرجال وتتحدث معهم ، وهى المرأة التى أسنت وخرجت عن حد المحجوبات .

(٢) أنصحت له لىتمكن من الضرع .

(٣) سال بكثرة .

(٤) لم تحمل .

لنا من أمره ما ذكر بمكة ، لقد هممت أن أصحبه ، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلا .

فطنة أسماء :

قالت أسماء رضى الله عنها : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج أبو بكر معه ، احتمل أبو بكر ماله كله ، وكان خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف ، فانطلق بها معه ، قالت : فدخل علينا جدى أبو قحافة وقد ذهب بصره ، فقال : والله إنى لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه ، قالت : قات : كلا يأبت ، إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً ، قالت فأخذت أحجاراً فوضعتها فى كوة (طاقة) فى البيت الذى كان أبى يضع ماله فيها ، ثم وضعت عليها ثوباً ، ثم أخذت بيده ، فقلت : يا أبت ضع يلك على هذا المال ، قالت : فوضع يده عليه ، فقال : لا بأس ، إذا كان قد ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفى هذا بلاغ لكم ؛ ولا والله ما ترك لنا شيئاً ، ولكنى أردت أن أسكن الشيخ بذلك .

أقول وما أعجب أثر الهدى فى سلوك أهل الإيمان حتى الأطفال منهم ، وما أعظم سيدنا أبا بكر فى إثبات الله على أهله وماله ، وما أسعده بصحبة مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الهجرة الميمونة إلى المدينة المنورة !

جزع بنى هاشم :

وقد جزعت بنو هاشم لخروجه صلى الله عليه وسلم من بينهم ، حتى لقد قالت عمته عاتكة بنت عبد المطلب فى أسفها على خروجه ، مع أنها كانت لاتزال على دين قومها :

أعينى جردى بالدموع السواجم	على المرتضى كالبدر من آل هاشم
على المرتضى للبر والعدل والتقى	وللدين والدنيا بهيج المعالم
على الصادق الميمون ذى الحلم والنهى	وللفضل والداعى نخبير التراحم

مائة ناقة لمن يرّده الرسول على قريش :

لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة مهاجراً إلى المدينة ، جعلت قريش فيه مائة ناقة لمن رده عليهم ؛ قال سراقة بن مالك : فبينما^(١) أنا جالس في نادى قومي إذ أقبل رجل منا حتى وقف علينا فقال : والله لقد رأيت ركبة ثلاثة مروا على أنفأ ، إني لأراهم محمداً وأصحابه .

قال سراقة : فأومأت إليه بعيني : أن اسكت ، ثم مكثت قليلاً ، ثم قمت فدخلت بيتي ثم أمرت بفرسي فقيد لي إلى بطن الوادي ، وأمرت بسلاحى ، فأخرج لي من دبر حجرتي ، ثم أخذت قداحى التى أستقسم بها ، ثم انطلقت فلبست لأمتى (درعى) ، ثم أخرجت قداحى فاستقسمت بها ، فخرج السهم الذى أكره « لا يضره »^(٢)

معجزة أخرى نبوية :

ثم مضى سراقة يقول :

فأبيت إلا أن أتبعه ، فركبت في أثره ، فبينما فرسى يشتد بي عثر بي فسقطت عنه فقلت : ما هذا ؟ ثم أخرجت قداحى فاستقسمت بها فخرج السهم الذى أكره « لا يضره » ، فأبيت إلا أن أتبعه ، فركبت في أثره ، فلما بدا لي القوم ورأيتهم عثر بي فرسى ، فذهبت يدها في الأرض ، وسقطت عنه ، ثم انتزع يديه من الأرض وتبعهما دخان الإعصار .

أرأيت أيها القارئ العزيز كيف عصم الله رسوله صلى الله عليه وسلم فلم يستطع سراقة أن يمسه بسوء ، اللهم احمنا بحماك ، واهدنا بهدائك .

قال سراقة : فعرفت حين رأيت ذلك أنه قد منع منى وأنه ظاهر ، قال : فناديت القوم ، فقلت : أنا سراقة أنظرونى أكلمكم ، فوالله لا أريبيكم ، ولا يأتيكم منى شيء تكرهونه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر :

(١) بينا .

(٢) أى السهم المكتوب فيه هذه الكلمة ؛ أى لن تتمكن من الإضرار به .

قل له : وما تبغى منا ، فقال ذلك أبو بكر ، قال سراقه قلت : تكتبون لى كتاباً يكون آية بينى وبينك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اكتب له يا أبا بكر ، قال سراقه : فكتب لى كتاباً فى عظم أورقة ثم ألقاه إلى ، فأخذته فجعلته فى كنانتى ثم رجعت ، فسكمت فلم أذكر شيئاً مما كان ، حتى إذا كان فتح مكة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفرغ من حنين والطائف ، خرجت ومعى الكتاب لألقاه ، فلقيته بالجعرانة (ماء بين الطائف ومكة) قال : فدخلت فى كتيبة من خيل الأنصار .

إسلام سراقه رضى الله عنه :

قال سراقه : فجعلوا يقرعونى بالرماح ويقولون : إليك إليك ، ماذا تريد ؟ فدنوت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على ناقته ، والله لكأنى أنظر إلى ساقه فى غرزه (ركابه) كأنها جُمارة^(١) ، فرفعت يدي بالكتاب ثم قلت : يا رسول الله هذا كتابك لى ، أنا سراقه ،

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يوم وفاء وبر ، اذنه ، قال : فدنوت منه فأسلمت ، ثم تذكرت شيئاً أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه فما أذكره ، إلا أنى قلت : يا رسول الله الضالة من الإبل تغشى حياضى وقد ملأتها لإبلى^(٢) ، هل لى من أجر فى أن أسقيها ؟ قال : نعم فى كل ذات كبد حررى^(٣) أجر ، قال : ثم رجعت إلى قومي ، فسقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقتى (يربا - زكاة ماله) .

وقد قالوا إن أبا جهل لام سراقه حين رجع مكة بلا شيء ، فقال سراقه رداً عليه :

أبا حكم والله لو كنت شاهداً لأمر جوادى إذ تسوخ قوائمه
علمت ولم تشكك بأن محمداً رسول يبرهان فمن ذا يقاومه

(١) شديدة البياض كجمارة النخل .

(٢) إبل التبر تأنى لتشرب من الحوض الذى يسقى منه إبله .

(٣) عطشى .

عليك بكف القوم عنه فإنني أرى أمره يوماً ستبدو معالمه
بأمر يود الناس فيه بأسرهم بأن جميع الناس طراً يسالنه

الوصول إلى قباء :

قال ابن إسحق :

وقد وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قباء ، ونزل على بنى عمرو
ابن عوف لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول حين اشتد الضحا وكادت
الشمس تعتدل .

ويحدث ابن إسحق بسنده عن بعض الصحابة قالوا :

فلما سمعنا بمخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة وتوَكَّفنا (انتظرنا)
قدمه ، كنا نخرج إذا صلينا الصبح إلى ظاهر حَرَّتْنَا^(١) فننظر رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، فوالله ما نبرح حتى تغلبنا الشمس على الظلال ، فإذا لم نجد ظلاً دخلنا ،
وذلك في أيام حارة ، حتى إذا كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله صلى الله عليه
وسلم جلسنا كما كنا نجلس ، حتى إذا لم يبق ظل دخلنا بيوتنا ، ودخل رسول الله
صلى الله عليه وسلم حين دخلنا البيوت ، فكان أول من رآه رجل من اليهود ،
وقد رأى ما كنا نصنع ، وإنا ننتظر قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم علينا ،
فصرخ بأعلى صوته :

يا بني قَيْلَةَ (هم الأنصار ، وقيلة جد هم) : هذا جدكم (حظكم السعيد)
قد جاء ، قال : فخرجنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في ظل نخلة ،
ومعه أبو بكر رضي الله عنه في مثل سنه ، وأكثرنا لم يكن رأى رسول الله صلى الله
عليه وسلم قبل ذلك ، فازدحم الناس عليه وما يعرفونه من أبي بكر حتى زال الظل
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام أبو بكر فأظلمه بردائه ، ففرغناه عند
ذلك .

أقول : فله ما أوقاك أيها الصديق الأكبر والعلم الأشهر ، فقد علمت المؤمنين

(١) الحرة : هي أرض ذات حجارة سود .

كيف يكون حبهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما أسعد من قللك وأخذ
عنتك ذلك الحب الخالص .

يوم الاثنين :

وكان وصوله إلى قباء في يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول
حين اشتد الضحا ، وما أعجب يوم الاثنين في تاريخ رسول الله صلى الله عليه وسلم
فقد ولد يوم الاثنين ، ونُبيُّ يوم الاثنين وخرج من مكة يوم الاثنين ، ووصل إلى
ضواحي المدينة (قباء) يوم الاثنين ، وانتقل إلى الرفيق الأعلى يوم الاثنين ، فما
أبرك يوم الاثنين . وقد كنت في طفولتي آنس بيوم الاثنين ولا أدري سر ذلك
الآنس ، فلما كبرت ووقفت على السيرة النبوية العطرة انكشف لي ما كان خافياً
علىّ ، والله في خلقه شؤون ، وما أرادته يكون .

في قباء :

فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بقباء في بني عمرو بن عوف يوم الاثنين
ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس وأسس مسجد قباء .

أقول : وهو أول مسجد بنى في الإسلام ، وذكروا أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم هو أول من وضع حجراً في قبلته ، ثم جاء أبو بكر فوضع حجراً إلى حجر
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أخذ الناس في البنيان .

قال ابن إسحق :

ثم خرج صلى الله عليه وسلم من بين أظهرهم يوم الجمعة ، فأدركت
رسول الله صلى الله عليه وسلم الجمعة في بني سالم بن عوف ، فصلاها في المسجد الذي
في بطن الوادي^(١) ، فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة .

(١) سمي هذا المكان مسجداً باعتبار أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى فيه وسجد .

الأنصار يرحبون :

وكانت هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة بإذن ربه كما علمت ، وقد وصل إليها في رعاية الله سالماً غانماً ، فتلقاه أهلها بالفرح الغامر ، وغتت بنات النجّار بين يديه الأغنية المباركة :

طلع البدر علينا من ثنَيَاتِ الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

وكانت بيوتات الأنصار يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هلم إلينا ، إلى العدد والعدة والمنعة ، ويمسكون بزمام الناقة التي يركبها صلى الله عليه وسلم ، فيقول : خلوا سبيلها فإنها مأمورة ، حتى إذا أتت إلى دار بني مالك بن النجار بركت على باب مسجده صلى الله عليه وسلم وهو يومئذ مرّبد (موضع يجف فيه التمر) لغلامين يتيمين من بني النجار .

فاحتمل أبو أيوب خالد بن زيد رحّل رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعه في بيته ، ونزل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسأل عن المربد لمن هو ؟ فقال له معاذ بن عفراء : هو يا رسول الله لسهل وسهيل ابني عمرو ، وهما يتيمان لي وسأرضيهما فيه فاتخذ مسجداً .

المسجد النبوي :

قال : فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبنى مسجداً ، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي أيوب حتى بنى مسجده ومساكنه ، فعمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرغب المسلمين في العمل فيه ، فعمل فيه المهاجرون والأنصار ودأبوا فيه ، فقال قائل من المسلمين :

لئن قعدنا والنبي يعمل لئذاك منا العمل المضلل

وارتجز المسلمون وهم يبنونه يقولون :

لا عيشَ إلاّ عيش الآخرة اللهم ارحم الأنصار والمهاجرة

قال ابن إسحق : فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا عيش إلا عيش الآخرة ، اللهم ارحم المهاجرين والأنصار .

معجزة نبوية :

قال ابن إسحق : فدخل عمار بن ياسر وقد أثقلوه باللِّين ، فقال : يا رسول الله قتلوني ، يحملون عليّ ما لا يحملون ، قالت أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم : فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفخ وفرته (شعر رأسه) بيده ، وكان رجلاً جعداً^(١) وهو يقول : ويح ابن سميّة ! ليسوا بالذين يقتلونك ، إنما تقتلك الفئة الباغية .

أقول : وقد قتله فئة معاوية في صفين ، فقال إمامنا عليّ كرم الله وجهه : الحمد لله الذي أراني أتي على الحق . فانظر كيف تحققت المعجزة بعد أربعين سنة ، وصلوات الله على صاحب المعجزات .

قال ابن إسحق :

وارتجز عليّ بن أبي طالب يومئذ :

لا يستوى من يعمّر المساجدا يدأب فيها قائماً وقاعدا

ومن يرى عن الغبار حائدا^(٢)

أدب الأنصار :

قال ابن إسحق يحدث بسنده عن أبي أيوب الأنصاري قال :

لما نزل عليّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في بيتي نزل في السفلى (الدور الأول) وأنا وأم أيوب في العلو ، فقلت له :

يا نبي الله ، بأبي أنت وأمي - إنى لأكره وأعظم أن أكون فوقك ، وتكون

(١) الشعر الجعد هو الملتوي ، وهو شعر عمار رضي الله عنه .

(٢) يبعد التراب عن نفسه .

تحتي ، فأظهر أنت فكن في العلو . ونزل نحن فنكون في السفلى .
 فقال : يا أبا أيوب : أرفق بنا وبمن يعشانا أن نكون في سفلى البيت .

أقول : رأيت كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في رأفته بمن يأتيه من المؤمنين ، وكيف كان يشق عليه تعيهم ، ولم لا وقد حلاه ربه بوصفه الخالد : (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) .

واستمع إلى بقية ما حدث به سيدنا أبو أيوب . لترى ما كان من أدبه مع النبي صلى الله عليه وسلم :

قال أبو أيوب رضى الله عنه : فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفلى المسكن وكنا في علوه . فلقد انكسر حُب (إناء كبير) لنا فيه ماء ، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ، ما لنا لحاف غيرها ننشف بها الماء . تخوفاً أن يقطر على رسول الله صلى الله عليه وسلم منه شيء فيؤذيه .

أول خطبة خطبها رسول الله :

قال ابن إسحق :

وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلم يبق بمكة منهم أحد إلا مفتون أو محبوس ، واستجمع له إسلام الأنصار . فلم يبق دار من دور الأنصار إلا أسلم أهلها وكانت أول خطبة خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها بلغنى :

حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : أما بعد ، أيها الناس ، فقدموا لأنفسكم ، تعلمن والله ليصعقن أحدكم ، ثم ليدعن غنمه ليس لها راع . ثم ليقولن له ربه وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه من دونه : ألم يأتك رسولى فبلغك ؟ وآيتك مالا وأفضلت عليك ؟ فما قدمت لنفسك ؟ فلينظرن يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً ، ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم ، فمن استطاع أن يبق وجهه من النار

ولو بشق من تمره فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة ، فإن بها تجزى الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار :

قال ابن إسحق :

وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً بين المهاجرين والأنصار ، وادّاع فيه اليهود وعاهدتهم وأقرّتهم على دينهم وأموالهم ، وشرط لهم ، واشترط عليهم ؛ وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه من المهاجرين والأنصار فقال - فيما بلغنا عنه ، ونعوذ بالله أن نقول عليه ما لم يقل - تأخّوا في الله أخوين أخوين ، ثم أخذ بيد عليّ بن أبي طالب فقال : هذا أخى .
أقول : وليلحظ القارئ الكريم الشرف الكبير الذى خصّ به إيماننا على ابن أبي طالب بهذا الإخاء الذى شرفه به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

حكمة المؤاخاة :

قال السهيلي : آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه حين نزلوا بالمدينة لينهب عنهم وحشة الغربة ، ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشير ، ويشدّ أزر بعضهم ببعض . فلما عزّ الإسلام ، واجتمع الشمل ، وزهبت الوحشة ، أنزل الله سبحانه فى سورة الأنفال : (وَأَوْلُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ) ، يعنى فى الميراث ، ثم جعل المؤمنين كلهم إخوة ، فقال تعالى فى سورة الحجرات : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) ، يعنى فى التوادد وشمول الدعوة .

الأذان للصلاة واستحكام الإسلام :

قال ابن إسحق :

فلما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، واجتمع إليه أصحابه من المهاجرين ، واجتمع أمر الأنصار ، استحکم أمر الإسلام ، فقامت الصلاة ،

وفرضت الزكاة والصيام ، وقامت الحدود ، وفرض الحلال والحرام ، وتبوء الإسلام بين أظهرهم ، وكان هذا الحى من الأنصار هم الذين تبوءوا الدار والإيمان .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدمها إنما يجتمع الناس إليه للصلاة لحين موافقتها بغير دعوة ، حتى رأى عبد الله بن زيد صيغة الأذان في رؤيا ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إنه طاف بي هذه الليلة طائف : مرّ بي رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوساً في يده ، فقلت له يا عبد الله ، أتبيع هذا الناقوس ؟ قال : وما تصنع به ؟ قلت ندعو به للصلاة ، قال : أفلا أدلك على خير من ذلك ؟ قلت : وما هو ؟ قال : تقول : الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، حتى على الصلاة ، حتى على الفلاح ، حتى على الفلاح ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله .

قال : فلما أخبر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لإنها لرؤيا حق إن شاء الله ، فقم مع بلال فألقها عليه ، فليؤذن بها ، فإنه أُندي صوتاً منك ، قال : فلما أذن بها بلال سمعها عمر بن الخطاب وهو في بيته ، فخرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يجرد رداءه يقول : يا نبي الله ، والذي بعثك بالحق ، لقد رأيت مثل الذى رأى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قلله الحمد على ذلك .

وفي رواية أخرى : ائتمر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالناقوس للاجتماع للصلاة ، فبينما عمر بن الخطاب يريد أن يشترى خشبتين للناقوس ، إذ رأى عمر بن الخطاب في المنام قائلاً يقول له : لا تجعلوا الناقوس ، بل أذنوا للصلاة ، فذهب عمر إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليخبره بالذى رأى ، وقد جاء النبي صلى الله عليه وسلم الوحي بذلك ، فما راع عمر إلا بلال يؤذن ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أخبره بذلك : قد سبقك بذلك الوحي .

غزوة بدر الكبرى :

ألف الله بين الأوس والخزرج بأخوة الإسلام . وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار ، فصار المسلمون يداً واحدة على أعدائهم . وقاد رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين بعون الله وقوته من نصر إلى نصر . وكانت بداية النصر المبين غزوة بدر الكبرى ، وهى التى ظهرت وتجسّمت فيها شخصية المسلمين ولو كره الكافرون . فى هذه الغزوة كتب الله للمسلمين أول انتصار حربى وأروعه على كفار مكة الذين كادوا السنوات الطوال للإسلام وأهله واضطربوا المسلمين أن يخرجوا من ديارهم لا لذنوب إلا أن يقولوا ربنا الله . وقام القتال بين المسلمين وأعدائهم فى بدر بغير ميعاد سابق ، ولا باستعداد مدبر ، وكان الله تعالى أراد أن يكافئ المسلمين على التأخى الصادق ، فاتاهم النصر العزيز المفاجئ . ليكون بداية سعيدة تقودهم من نصر إلى نصر فى الغزوات اللاحقة .

ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع بأبى سفيان بن حرب مقبلاً من الشام فى غير عزيمة لقريش ، تحمل أموالهم وتجارتهم ، فقال لأصحابه : هذه غير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها ، فخرج بعض الصحابة وتحلف البعض حيث لم يظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى حرباً .

ولما علم أبو سفيان بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم استنفر أصحابه ليأخذوا العير ، اتصل بأهل مكة واستنفرهم ليدافعوا عن العير ، وقد أفلتت العير ، ولم يتمكن المسلمون من وضع يدهم عليها ، وجاءت قرأت قريش ، وعلمت بأن العير أفلتت ، ورأى بعضهم أن يرجعوا إلى مكة بغير قتال ، ولكن أباهم أبا جهل ألقى وقال : والله لا نرجع حتى نرد بدرأ (وكانت بدر من مواسم العرب) فنقيم عندها ، ثلاثاً ، وننحر الجزر ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر . وتعزف علينا القيان (الجوارى) ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها فأمضوا رأيه .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خرج من المدينة لوضع ليل مضت من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة، وأتاه الخبر بأن قريشاً خرجوا من مكة

ليصنعوا غيرهم ، فاستشار أصحابه صلى الله عليه وسلم ، فأحسنوا القول وأظهروا الطاعة التامة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد يسائل القارئ نفسه : ولماذا يستشير الرسول أصحابه ، وهو المطاع أمره بلا تعقيب ؟ والجواب أن الله تعالى قال له : (وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ) . وقال في المؤمنين : (وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ) ، فسن لنا صلى الله عليه وسلم الشورى في الأمور العامة ، وسبقنا بذلك كل الأمم ، هذا من جهة ، ومن الجهة الأخرى فإن بيعة العقبة قامت على أن يحمى الأنصار الإسلام في المدينة ، وكانت بدر خارج المدينة وبينها وبين المدينة نحو ١٥٠ كيلومتراً .

ولما رأى رسول الله قوات قريش قال : اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذي وعدتني ، اللهم أحنيهم (أهلكهم) الغداة !

وقد وعد الله رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يمكنه من أعدائه ، إما بالاستيلاء على عير أبي سفيان أو بالنصر على جيش قريش . وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة الأنفال : (وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونَ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ) .

وقد أراد الله أن يقع القتال بعد أن أفلتت العير فكانت الحرب ذات الشوكة ، وقد كانت معنويات الصحابة قوية على الرغم من أنهم حين خرجوا من المدينة لم يكن في حسابهم قيام الحرب مع أعدائهم ، ولتري صورة مشرقة نشجاعة الصحابة ومعنوياتهم القوية في لقاء أعدائهم الكافرين اقرأ ما قاله عندما شاورهم الرسول في القتال كل من سيدنا المقداد بن عمرو وسيدنا سعد بن معاذ :

فقد قال الأول : يا رسول الله ، امض لما أراك الله ، فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : (اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا ههنا

قَاعِدُونَ) ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون .

وقال الثاني : قد آمننا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت ، فنحن معك ، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ، إنا لصيبو في الحرب صدق في اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله .

فسر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم .

(وسعد بن معاذ - رضى الله عنه - هو رئيس الأوس من الأنصار ، وهو الذى أشار ببناء عريش يستظل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال فى إبداء رأيه هذا : يا رسول الله ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ، ونعد عندك ركائبك ثم تلقى عدونا ، فإن أعزنا الله ، وأظهرنا على عدونا ، كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك ، فلحقت بمن وراءنا ، فقد تخلف عنك أقوام - يا نبي الله - ما نحن بأشد حباً لك منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك ، يمنعك الله بهم ، يناصحونك ، ويجاهدون معك . فأثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعا له بخير ثم بشىء لرسول الله صلى الله عليه وسلم عريش فكان فيه) .

وعلى الرغم من أن عدد مقاتلى مكة كان ثلاثة أمثال عدد المقاتلين من الصحابة فإن الله تعالى قد نصر الفئة القليلة المؤمنة على الفئة الكثرية الكافرة ، وقد شاء الله أن يقتل فى تلك الغزوة صناديد قريش ورعوس الكفر ، وعلى رأسهم أبو جهل أعدى أعداء الإسلام .

وقد رأيت صوراً مشرقة من كلام أسلافك الغرالميامين قبل المعركة ، فانظر إلى صورة مشرقة من أفعالهم فى المعركة ، فقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يُحَرِّضُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ وَيَتَوَسَّلُ : والذى نفس محمد بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل

فيقتل صابراً محتسباً ، مقبلاً غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة . فقال سيدنا عمير بن الحمام من بنى سلمة ، وفي يده تمرات يأكلهن : بَخِ بَخِ (كلمة إعجاب) أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ؟ ثم قذف التمرات من يده ، وأخذ سيفه ، فقاتل القوم حتى قتل ، رضى الله عنه .

وقد خفق رسول الله خفقة بعد أن دعا ربه بالنصر ، ثم انتبه من خفقته ، وقال لسيدنا أبى بكر رضى الله عنه ، وكان معه فى العريش الذى يشرف منه على المعركة : أبشر يا أبى بكر ، أتاك نصر الله ، هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقوده على ثناباه النقع (الغبار) .

وكان النصر للمؤمنين ، وقتل من الكافرين سبعون ، وأمير سبعون ، فى حين لم يزد عدد شهداء المسلمين على أربعة عشر رجلاً . وكانت وقعة بدر يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة من شهر رمضان .

الملائكة فى غزوة بدر الكبرى :

ويحكى القرآن الكريم ما كان من عون الله للمسلمين فى قوله تعالى فى سورة آل عمران : (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) . إذ تقول للمؤمنين أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُعِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ . بلى إن تضربوا وتثقفوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسويين . وما جعله الله إلا بشري لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم . ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكتبهم فينقلبوا خائبين) ؛ فانظر كيف تمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يمدد الله بثلاثة آلاف ، فأمدهم بخمسة آلاف ، وكيف قاتلت الملائكة فى صفوف المؤمنين ، ولم يكن لهم عهد بقتالهم ، فعلمهم الله بقوله الكريم فى سورة الأنفال : (إِذْ يُوحى رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنى مَعَكُمْ فَتَبَتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَالِقَى فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ

الْأَعْنَاقِ وَأَضْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ . ذَلِكَمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ) ، فعلمهم ضرب الرقاب وضرب الأطراف التي يصيبون بها المقتل ؛ والله جنود السموات والأرض ، وقد قال ابن عباس : لم تقاتل الملائكة في يوم سوى يوم بدر ، وكانوا فيما سواه عدداً ومدداً لا يضربون .

أقول : ولك أن تعجب بأمر تلك الحجرة الميمونة ، التي جعل الله بها من الغربية وطناً ، ومن الضعف قوة ، ومن الخوف أمناً ، ومن البعيد عوناً على القريب ، والله يرجع الأمر كله ، فاعبده وتوكل عليه .

الأنصار يتحدثون بنعمة الله :

قال ابن إسحق :

« وقال أبو قيس صرمة بن أبي أنس (من بني النجّار) يذكر ما أكرمهم الله به من الإسلام ، وما خصهم الله به من نزول رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم :

يُدَّكَّرُ لُوَيْلَقِي صَدِيقًا مَوَاتِيَا	ثَوِي فِي قَرِيْشٍ بَضْعَ عَشْرَةَ حِجَّةَ
فَلَمْ يَرِ مِنْ يَثْوِي وَلَمْ يَرِ دَاعِيَا	وَيَعْرِضُ فِي أَهْلِ الْمَوَاسِمِ نَفْسَهُ
فَأَصْبَحَ مَسْرُورًا بِطَبِيبَةٍ رَاضِيَا	فَلَمَّا أَتَانَا أَظْهَرَ اللَّهُ دِينَهُ
وَكَانَ لَهُ عَوْنًا مِنَ اللَّهِ بَادِيَا	وَأَلْنِي صَدِيقًا وَاطْمَأْنَنْتَ بِهِ النَّوِي
وَمَا قَالَ مُوسَى إِذْ أَجَابَ الْمُنَادِيَا	يَقْصُ لَنَا مَا قَالَ نُوحٌ لِقَوْمِهِ
قَرِيبًا وَلَا يَخْشَى مِنَ النَّاسِ نَائِيَا	فَأَصْبَحَ لَا يَخْشَى مِنَ النَّاسِ وَاحِدًا
وَأَنْفَسْنَا عِنْدَ الْوَعْيِ وَالْتَأَسِيَا	بَدَلْنَا لَهُ الْأَمْوَالَ مِنْ حُلِّ مَا لَنَا
جَمِيعًا وَإِنْ كَانَ الْحَبِيبُ الْمُصَافِيَا	نَعَادِي الَّذِي عَادَى مِنَ النَّاسِ كُلَّهُمْ
إِذَا هُوَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ اللَّهُ وَاقِيَا	فَوَاقَهُ مَا يَلْمُرِي الْفَتَى كَيْفَ يَتَى

عداوة اليهود والمنافقين :

قال ابن إسحق :

ونصبت عند ذلك أحبار يهود لرسول الله صلى الله عليه وسلم العداوة بغياً وحسداً وضغناً ، واستتر بالإسلام بعض العرب ، واتخذوه وقاية من القتل ، ووافقوا في السر وكان هواهم مع اليهود .

ولما أصاب الله عز وجل قريشاً يوم بدر جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهود في سوق بني قينقاع حين قدم المدينة ، (أى بعد معركة بدر) فقال : يا معشر اليهود : أسلموا قبل أن يصيبكم الله بمثل ما أصاب به قريشاً ، فقالوا له : يا محمد ، لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفرأ من قريش كانوا أعماراً لا يعرفون القتال ، إنك والله لو قاتلنا لعرفت أننا نحن الناس ، وأنت لم تلاق مثلنا ، فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم :

(قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتْغَلِبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيَبِئْسَ الْمِهَادُ . قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَىٰ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ) .

إسلام عبد الله بن سلام :

قال ابن إسحق :

وكان من حديث عبد الله بن سلام كما حدثني بعض أهله عنه وعن إسلامه حين أسلم ، وكان حبراً عالماً ، قال :

لما سمعت برسول الله صلى الله عليه وسلم عرفت صفته ، واسمه ، وزمانه الذي كنا نتوكف (نترقب) له ، فكنت مسراً لذلك ، صامتاً عليه ، حتى قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فلما نزل بقاء ، في بني عمرو بن عوف ، أقبل رجل حتى أخبر بقدومه ، وأنا في رأس نخلة لى أعمل فيها ، وعمى خالدة

ابنة الحارث تحتي جالسة ، فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم كبرت ، فقالت لي عمتي حين سمعت تكبيرى : خيبك الله ، والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادمًا ما زدت .

فقلت لها : أى عمّة ، هو والله أخو موسى بن عمران ، وعلى دينه ، بعث بما بعث به ، فقالت : أى ابن أختى ، أهو النبي الذى كنا نُنخبِرُ أنه بعث مع نفس الساعة (أى رسالته علامة على قرب القيامة) ؟ فقلت لها : نعم ، فقالت فذاك إذن ، قال : ثم خرجت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلمت ، ثم رجعت إلى أهل بيتى فأمرتهم فأسلموا .

وكتمت إسلامى من يهود ، ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت له : يا رسول الله : إن يهود قوم بهت (على الباطل) ، وإنى أحب أن تدخلنى فى بعض بيوتك وتغيبنى عنهم ، ثم تسألهم عنى حتى يخبروك كيف أنا فيهم قبل أن يعلموا بإسلامى ، فإنهم إن علموا به بهتوني وعابوني .

فأدخلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض بيوته ودخلوا عليه فكلّموه وسألوه ، ثم قال لهم : أى رجل الحصين بن سلام فيكم قالوا : سيدنا وابن سيدنا ، وجبرنا وعالمنا ، فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم ، فقلت لهم : يا معشر يهود ، اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به ، فوالله لأنكم لتعلمون أنه رسول الله ، تجدونه مكتوبًا عندكم فى التوراة باسمه وصفته ، فإنى أشهد أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأومن به وأصدقه وأعرفه ، فقالوا : كذبت ، ثم وقعوا بى فقلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قوم بهت ، أهل غدر وكذب وفجور ، فأظهرت إسلامى وإسلام أهل بيتى ، وأسلمت عمتى خالدة بنت الحارث ، فحسن إسلامها .

قال ابن إسحق :

وفى أحبار اليهود الذين لم يسلموا ، وفى المنافقين من الأوس والخزرج ، نزل صدر سورة البقرة إلى المائة منها ، وقال الله للفريقين : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِى جَعَلَ

لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الشَّجَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) . أى لا تشركوا بالله غيره من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر ، وأنتم تعلمون أنه لا رب لكم يرزقكم غيره، وقد علمتم أن الذى يدعوكم إليه الرسول من توحيدِهِ هو الحق لا شك فيه ، ثم قال تعالى : (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ، وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) .

قال ابن إسحق :

حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه : قال : قالوا : فينا والله وفيهم نزلت هذه القصة : (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ) . قال : كنا قد علوناهم ظهراً في الجاهلية ، ونحن أهل شرك ، وهم أهل كتاب ، فكانوا يقولون لنا : إن نبياً يبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه ، نقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم من قريش فاتبعناه كفروا به .

كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى يهود خيبر

قال ابن إسحق : وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، صاحب موسى وأخيه ، والمصدق بما جاء به موسى : ألا إن الله قد قال لكم يا معشر أهل التوراة ، وإنكم لتجدون ذلك في كتابكم :

(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ

السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَامْتَغَلِظَ فَأَسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوْقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا) ، وإني أنشدكم بالله ، وأنشدكم بما أنزل عليكم ، وأنشدكم بالذي أطعم من كان قبلكم من أمباط. المن والسلوى ، وأنشدكم بالذي أيبس البحر لآبائكم حتى أنجاهم من فرعون وعمله ، إلا أخبرتموني : هل تجدون فيما أنزل الله عليكم أن تؤمنوا بحمد؟ فإن كنتم لا تجدون ذلك في كتابكم فلا كره عليكم (قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) فادعوكم إلى الله وإلى نبيه .

قال ابن إسحق :

وحدثت عن سعيد بن جبير أنه قال : أتى رهط من يهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا محمد ، هذا الله خلق الخلق ، فمن خلق الله ؟ قال فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتقع لونه ، ثم ساورهم غضباً لربه ، قال فجاءه جبريل عليه السلام فسكته ، فقال : خَضَّصْ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ ، وَجَاءَهُمْ مِنَ اللَّهِ بِجَوَابِ مَا سَأَلُوهُ عَنْهُ (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ • اللَّهُ الصَّمَدُ^(١) • لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ • وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) . فلما تلاها عليهم ، قالوا : فصف لنا يا محمد كيف خلقه؟ كيف ذراعه؟ كيف عضده؟ فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد من غضبه الأول وساورهم ، فأتاه جبريل عليه السلام ، فقال له مثل ما قال له أول مرة وجاءه من الله بجواب ما سأله ، يقول الله تعالى : (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ) .

(١) الصمد أى الذى يلجأ الناس إليه .

قال ابن إسحق :

وقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهود من أهل الكتاب إلى الإسلام ورغبهم فيه ، وحذّرهم عذاب الله ونقمته ، فقال له رافع بن خارجة ومالك بن عوف : بل نتبع ما ألفينا عليه آبائنا ، فهم كانوا أعلم وحيراً منا ، فأنزل الله عز وجل في ذلك من قولهما : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلَوْكَ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ!) .

وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض اليهود وقالوا له : يا محمد ، أما تعلم مع الله إلهاً غيره ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله لا إله إلا هو ، بذلك بعثت . وإلى ذلك أَدْعُو ، فأنزل الله فيهم وفي قولهم في سورة الأنعام : (قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْنَكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ = الَّذِينَ اتَّيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) .

وأتى رسول الله جماعة من اليهود فقالوا : أحق يا محمد أن هذا الذي جئت به الحق من عند الله ؟ فإننا لانراه متسقاً كما تنسق التوراة ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما والله إنكم لتعرفون أنه من عند الله ، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة ، ولو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ما جاءوا به ، فقالوا عند ذلك : يا محمد أما يعلمك هذا إنس ولاجن ؟ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أما والله إنكم لتعلمون أنه من عند الله وأتى لرسول الله : تجدون ذلك مكتوباً عندكم في التوراة ، فقالوا : يا محمد فإن الله يصنع لرسوله إذا بعثه ما يشاء ويقدر منه على ما أراد ، فأنزل علينا كتاباً من السماء نقرؤه ونعرفه وإلا

جثناك بمثل ما تأتي به ، فأنزل الله تعالى فيهم وفيما قالوا (قُلْ لِيُنِ اجْتَمَعَتِ
الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ
بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) .

بين الرسول والمسيحين

قال ابن إسحق :

وقد ذكر الله أمر عيسى رداً على من اختلفوا في أمره ثم قال تعالى :
(إِنَّ مِثْلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝
الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ) فَإِنْ قَالُوا خَلَقَ عِيسَىٰ مِنْ غَيْرِ ذَكَرَ ،
فقد خلقت آدم من تراب بتلك القدرة ، فليس خلق عيسى من غير ذكر
بأعجب من هذا .

ثم قال تعالى : (فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ) ، أى
بعد ما قصصت عليك من خبره ، وكيف كان أمره ، (فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ
أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ
لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ) .

وقد دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هذه الملاعة فقالوا: دعنا نظرفى أمرنا،
ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه ، فانصرفوا عنه ، وخلوا « بالعاقب »
وكان ذا رأى فيهم فقالوا : يا عبد المسيح ، ماذا ترى ؟

فقال : والله يا معشر النصارى ، لقد عرفتم أن محمداً نبيّ مرسل ، ولقد
جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ، ولقد علمتم ما لأعنّ قوم نبيّاً قط فبني
كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم ، فإن كنتم قد أبيتم
إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول فى صاحبكم ، فوادعوا الرجل
ثم انصرفوا إلى بلادكم .

فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا أبا القاسم قد رأينا ألا نلّا عنك ، وأن نتركك على دينك ، ونرجع على ديننا .

أقول : وللقارئ أن يعجب من هؤلاء الذين رأوا الحق بأنفسهم وجحدوه ولم يتبعوه ، فحرموا أنفسهم من سعادة لا شقاء بعدها ، وسبحان من بيده ملكوت كل شيء (رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

الغزوات والبعوث والسرايا :

وفي أثناء إقامته بالمدينة جاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه من المهاجرين والأنصار أعداء الإسلام من الكفار والمنافقين ، عربهم ويهودهم ، وكان جهاده لأعداء الدين جهاداً كبيراً ، قابل فيه المسلمون الشدائد بعزم مؤكد ، هو عزم أهل اليقين الذين تهون عليهم كل تضحية في سبيل الدين ، ولا تعجب أن يكون ذلك شأنهم ، وقائدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كانوا يتقون به إذا حمى الوطيس ، كما حدثت إمامنا على بن أبي طالب ، فقد قال كرم الله وجهه : « كنا إذا حمى البأس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما يكون أحد أقرب منه إلى العدو » ، وكانت للمسلمين بعون الله الغلبة الفائقة على أعدائهم ، ورضى الله عن إمامنا البوصيري إذ يقول في برده المباركة بروحه الملهمة :

راعت قلوب العدا أنباء بعثته كنبأة^(١) أجمفت غفلا^(٢) من الغم
ما زال يلقاهمو في كل معترك حتى حكوا بالقنا لحمًا على وضم^(٣)
يجر بحر خميس^(٤) فوق ساجحة يرى بموج من الأبطال ملتظم

(١) النبأة : أى الصرخة الشديدة .

(٢) الغفل : أى البليد .

(٣) الوضم : ما يوضع عليه الجزار اللحم .

(٤) الخميس : الجيش الكبير .

من كل منتدب لله محتسب حتى غدت ملة الإسلام وهي بهم مكفولة أبدأ منهم بخير أب هم الجبال فسل عنهم مصادمهم وسل حينئذ وسل بداراً وسل أحداً شاكى السلاح لهم سيما تميزهم كأنهم في ظهور الخيل نبت رباً ومن تكن برسول الله نصرته أحل أمته في حرز ملته

يسطو بمصطلم للكفر مصطلم^(١) من بعد غربتها موصولة الرحم وخير بعلم فلم تيم ولم تتم ماذا رأى منهمو في كل مصطلم فصول حتف^(٢) لهم أدهى من الوخم^(٣) والورد يمتاز بالسما من السلم^(٤) من شدة الحزم لامن شدة الحزم إن تلقه الأسد في آجامها تجم كالليث حل مع الأشبال في أجم

قال ابن إسحق :

وكان جميع ما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه سبعاً وعشرين غزوة هي : غزوة ودان أو غزوة الأبواء ، ثم غزوة بواط ، ثم غزوة العشيرة ، ثم غزوة بدر الأولى ، ثم غزوة بدر الكبرى التي قتل فيها صناديد قريش ، ثم غزوة بني سليم ، ثم غزوة السويق ، ثم غزوة غطفان أو ذى أمر . ثم غزوة بحران ، ثم غزوة بني قينقاع ، ثم غزوة أحد ، ثم غزوة حمراء الأسد ، ثم غزوة بني النضير ، ثم غزوة ذات الرقاع ، ثم غزوة بدر الآخرة . ثم غزوة دومة الجندل ، ثم غزوة الخندق ، ثم غزوة بني قريظة ، ثم غزوة بني الحيان . ثم غزوة ذى قرد ، ثم غزوة الفتح ، ثم غزوة حنين ، ثم غزوة الطائف ، ثم غزوة تبوك .

وقد قاتل صلى الله عليه وسلم منها في تسع غزوات : بدر ، وأحد ، والخندق ، وقريظة ، والمصطلق ، وخيبر ، والفتح ، وحنين ، والطائف .

وكانت بعوثه وسراياه ثمانية وثلاثين من بين بعث وسرية .

(١) مصطلم : أى مهلك .

(٢) الحتف : هو الموت .

(٣) الوخم : هو الوباء .

(٤) السلم : شجر له شوك يشبه شجر الورد .

فرض الهجرة :

خرج المسلمون مهاجرين بعد ثلاثة عشر عاماً من بعثته صلى الله عليه وسلم ، ثم عادوا إلى مكة في السنة الثامنة من الهجرة فاتحين ، وكانت الهجرة فرضاً على المسلمين قبل فتح مكة ، أما بعد الفتح فلم تعد هجرة مفروضة ، لكن جهاد ونيّة ، ولهذا قال تعالى في سورة النساء أمراً بالهجرة وحاضاً عليها ، ومنذراً المتخلفين عنها قبل الفتح : (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا) .

أصحاب الأعدار :

وقد عذر الله المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لم تنهياً لهم أسباب التخلص والزياد والراحلة حتى يهاجروا للحاق برسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة ، وحين نزل قوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ) قال رجل من المسلمين وهو مريض ، وقيل اسمه ضمرة بن جندب ، والله مالى من عذر ، إني لدليل في الطريق ، وإني لموسر ، فاحملوني فحملوه فأدركه الموت في الطريق ، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو بلغ إلينا لم أجره ، وقد مات في التنعيم^(١) . وجاء بنوه إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبروه بالقصة ، فنزلت الآية الكريمة : (وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) .

(١) مكان خارج مكة ببضعة كيلومترات ، ويحرم منه للعمرة ويقال له مسجد عائشة .

وقال الإمام البيضاوي في تفسيره : إن ذلك المهاجر التَّقِيَّ أشرف على الموت ، فصفق بيمينه على شماله فقال : اللهم هذه لك وهذه لرسولك ، أبايعك على ما بايع عليه رسولك صلى الله عليه وسلم ؛ وتفيد الآية أن أجره ثبت عند الله ، والمرغم هو المتحول ، وهو من الرغام أى التراب ، وقيل يجد طريقاً يرغام بسلوكه قومه ، ويفارقهم على رغم أذوفهم ، وهو أيضاً من الرغام .

الفرار بالدين :

وجاء في تفسير الإمام القرطبي : قال ابن القاسم : سمعت ما لكنا يقول المرغام الذاهب في الأرض ، وقال الإمام مالك أيضاً : هذه الآية دالة على أنه ليس لأحد المقام بأرض يسب فيها السلف ويعمل فيها بغير الحق ، والهجرة التي كانت فرضاً في أيام النبي صلى الله عليه وسلم وانقطعت بفتح مكة هي القصد إليه صلى الله عليه وسلم ، أما الهجرة وهي الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام فهي باقية مفروضة إلى يوم القيامة .

نصيحة :

أقول : فانظر كم تحمّل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكم تحمّل أصحابه ، وكم قاسوا الشدائد واقتحموا الصعاب في توطيد دعوة الحق ، فلا تستهن أيها المسلم بدعوة الإسلام التي أنتك بيضاء كاللبن من بين فرث ودم ، وشد يدك على دينك ، واعتز به ، واحمد الله على هداك ، وانو الجهاد بنفسك ومالك إن دعيت للجهاد في سبيل الله ، وجاهد نفسك التي بين جنبيك وألزمها آداب الإسلام ظاهراً وخافياً ، فالآداب الظاهرة حظ الجوارح ، والآداب الخافية حظ القلوب والأرواح ، ولا خير في ظاهر لا يتفق معه الباطن ، وقد تعبد الله الجوارح بالأفعال ، وتعبد القلوب بالنيات ، واجتنب الفواحش الباطنة ، والأخلاق الشيطانية السيئة من الرياء والنفاق والحقد والحسد ، والتبرم بالمقدور ، والكبرياء والعجب والخيلاء وما إلى ذلك .

ولتعلم أيها الأخ المؤمن أن أسلافك الشجعان الأئمة رويوا لك ولكافة المسلمين ، أنه كان من أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم : الحياء ، والسخاء ،

والتوكل، والرضا، والذكر، والشكر، والحلم، والصبر، والعفو، والصفح، والرفقة،
والرحمة، والمداراة، والنصيحة، والسكينة، والوقار، والتواضع، والافتقار،
والجود، والسماحة، والخضوع، والقوة، والشجاعة، والرفق، والإخلاص،
والصدق، والزهد، والقناعة، والخشوع، والخشية، والتعظيم، والهيبة، والدعاء
والبكاء، والخوف، والرجاء، واللياقة، واللجأ، والتهجيد، والعبادة، والجهاد،
والمجاهدة - ولا تستكثر ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد شهد الله تعالى
له بالخلق العظيم في قوله الكريم: (وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ) ، فمخلق
بأخلاقه ما استطعت إلى ذلك سبيلا :

وقد سئل الإمام سهل التستري رضى الله عنه عن الكرامات، فقال: وما الكرامات؟
إن الكرامات شيء ينتضى لوقته، ولكن أكبر الكرامات أن تبدل خلقاً مذموماً من
أخلاقك خلقاً محموداً. كما قال الإمام أبو علي الجرجاني رضى الله عنه: كن
طالباً الاستقامة لاطالبها الكرامة، فإن نفسك منجبله على طلب الكرامة، وربك
يطلب منك الاستقامة. وقال الإمام الجنيد رضى الله عنه لرجل رآه في رؤيا بعد
موته وقال له: ما فعل الله بك؟ فقال: راحت تلك الإشارات، وطاحت
تلك العبارات، وما نفعنا إلا ركيعات ركعناها عند السحر. وأخيراً لاتنس أن الله
تعالى يقول لنا:

(تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا) . والتقوى كما
عرفها إمامنا على كرم الله وجهه هي الخوف من الجليل، والعمل بما في
التنزيل، والاستعداد ليوم الرحيل .

أقول: وإذا كان الإسلام قد انتشر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم في
غير الجزيرة العربية التي شبع منها نور الإسلام فيها على يد رسول الله، فمحا
ظلمة الكفر، فقد كان ذلك بفضل أصحابه الكرام، الذين نقلوا عنه صلى الله
عليه وسلم الجهاد الدائم في سبيل الله، مهما عظمت التضحيات لنشر دينه الذي
أرسله الله به لكافة البشر، فلمن تبدل مجهودك إن لم تبدله لمعبودك، ألم يقل الله
لى ولك وللمسلمين كافة (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا
رسول الله في القرآن

وَوُوتَ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا) ، فادع إلى سبيل ربك بكل ما تملك من وسائل ،
 وادع أول ما تدعو نفسك التي بين جنبيك وهي الأقرب إليك ، لتؤدي حق الإسلام
 عليك ، واتكن عنايتك بنشر الإسلام بعد ذلك بين أهله من المسلمين ، فقد
 جانيبوا أكثر آدابه الحققة ، وحادوا فيها عن الصراط المستقيم ، ولولا أن الإيمان
 بالله، ورسوله لا يزال يُحسبُهم لئسنا من إصلاحهم ، فقد تعادوا أفراداً وشعوباً
 وقبائل وأممًا وكانوا متحابين ، وتحاسدوا وكانوا بما آتى الله بعضهم فرحين ،
 وأهملوا العبادات بعد أن كانوا بها يزدهرون ، وولعوا بتقليد غيرهم بعد أن كان
 الناس بهم يقتدون ، وما أغناهم عن التقليد ، وما أحوج غيرهم إلى عقيدة
 الإسلام وآدابه التي أغنانا الله بها من فضله ، فوا إسلاماه !! ، وإذا كنا في الماضي
 نغزو ما حل بنا من فساد الأحوال للاستعمار. فقد نفضنا عاره عنا وصرنا أحراراً
 في بلادنا الإسلامية وتهيأت لنا فرصة لإصلاح ما فسد .

فإن نحن أبرزنا أثر الإسلام في سلوكنا كأمة ، كانت تلك أعظم
 رعاية عملية للإسلام فاستغنيا بها عن كثير الكلام ، إن الأمم الأعجمية
 رحبت بالإسلام حين رأوا من أسلافنا الصالحين عدلاً شاملاً في الأحكام ،
 تنفيذاً لأوامر الله، فقد قال تعالى : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ
 ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) ،
 فإن نحن انتهينا عن الفحشاء والمنكر والبغى عادت لنا سيرتنا الأولى ، وكنا
 كأسلافنا صالحين .

نحن وأسلافنا الصالحون :

وإذا ذكرت أسلافك الصالحين أيها القارئ الكريم فاستغفر لهم كما
 علمك الله بقوله تعالى في سورة الحشر : (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ
 رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا
 لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) .

لقد جاءك الإسلام يا أخى سهلاً ، لأنهم تحمّلوا عنك فيه الصعب ،
فاذكر الفضل لأهله ولا تكن من الجاحدين ، فما أبر الخاف إن ذكروا بالفضل
السلف ، وما أحق سلفك بوفائك ، وما أجدرهم بدعائك وهم في رضوان الله ، وقد
صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فاصدق معهم فيما أدبك الله به ووجهك إليه ، وكيف
تبخل عليهم بدعائك وقد جادوا من أجلك بأرواحهم ، وخلفوا لك السعادة في
إسلامك ؟!